

أزال معتزلاً بها - • ولكنني لا أتم القارىء أنني كنت أقرأ هذا المذهب في
نجوة من الناس ، خوفاً من تعليقاتهم وتفسيراتهم التي كنت في غنى عن سماعها
والدخول في مناقشات معهم بسببها •

ولقد بذلت جهوداً فكرية شاقة ، بصدد استيعاب قوانين الجدلية ، كما
يجب استيعابها ، ولقد كنت أكبر خلال ذلك ، أولئك الذين يعتقدون هذا المذهب
ويدافعون عنه ، وأكثرهم شباب لا يزيدون على ما أنا فيه من المستوى الفكري
والثقافي ، إذ كنت أظن أنهم لم يعتقدوا مذهبهم هذا ، إلا وقد هضموا
أساسه الفلسفي هضمًا تاماً ، وفهموه فهماً دقيقاً ! ولم أعلم ، الا فيما بعد ،
أن أكثرهم ، إنما هضم المذهب في نفسه فقط عن طريق الإعجاب والانبهار ، ولم
يدخل شيء منه في عقله عن طريق الفهم والاقتناع ! ••

لقد كانت ثمرة قراءتي الدقيقة لجذور هذا المذهب ، أنني لم أعد منه إلا
بخفي حنين ! •• لقد دخلت في قراءته ، وأنا أحمل معي جعبة العقل والمنطق ،
فارغة مهياة ، ليس فيها أي أخلاط من شأنها أن تعيقني عن القناعة والفهم ،
فعدت بها فارغة كما كانت اللهم إلا من أحكام جزئية يؤيدها المنطق ، ولكن
لا يترتب عليها أي شيء ذو بال •

عدت ، لأجد يقيني بالله وصفاته ، أتم رسوخاً ، وأقوى ثباتاً ، في تربة
المنطق الموضوعي الصافي الذي يستعلي على كل عصبية أو تقليد •



إنني أقرر أن معظم المتقنين من الناس ، سمعوا بضخامة الأساس الفلسفي
الفكري لهذا المذهب ، دون أن يقرأوا منه شيئاً ذا بال • رأوا بأعينهم قبة عظيمة
تنهض عليها أحكام اجتماعية ونظريات اقتصادية ، دون أن يدخلوا الى هذه
القبة فينظروا الى ما فيها ، وربما دون أن يلمسوا حتى جدران هذه القبة
ليعلموا شيئاً من حقيقتها •

بل إنني أقول : إن كثيراً من المعتنقين لهذا المذهب والداعين إليه ، لم يقبلوا من قراءة أساسه الفلسفي هذا إلا على عناوين حفظاً بعض مضموناتاها السطحية ، وراحوا يقارعون بها أفكار الناس ، ويهيمنون بها على نفوسهم . ولماذا يفعلون ذلك ؟ وفي سبيل أي منفعة أو غاية ؟

ترك علم ذلك لمن يريد أن يلاحقه ويبحث عنه . فليس هذا محور ما نتحدث فيه الآن .

ونحن الذين آلينا على أنفسنا ، أن نقاد للحق الذي يتبين لنا بمنظار المنطق السليم عن الشوائب ، أياً كان ، لا تصدنا عنه رهبة ولا تأسرنا له رغبة ، ما الذي يجب علينا فعله والحالة هذه ؟

إنه واجب واحد ، لا خيار لنا فيه ، هو أن نضع كل ما ندعى إليه ، تحت مجهر الدرس والبحث العلمي ، ثم نحكم له أو عليه ، على ضوء النتيجة التي يوصلنا إليها هذا البحث .

إننا بهذا نتقي غائلة المهولين والخادعين ، إذا تبين لنا أن الأمر تهويل وخداع ؛ ونضع أنفسنا موضع الشكر لهم والاتباع لدعوتهم ، إذا تبين لنا أن الأمر حقيقة ثابتة .

وانتي لأشعر بهذا الواجب ، منذ حين طويل . كما أدعو إليه أصحابي وكل الذين ألتقي بهم على مقاعد الدرس أو في المحاضرات والدروس المفتوحة العامة ، في كل مناسبة .

ولكن شعوري بهذا الواجب ازداد ، بل ربما تضاعف ، في المدة الأخيرة ، عندما رأيت أن هناك من يلعب للمغامرة بعقول الناس وأفكارهم ، بورقة واحدة ، هي الجدلية ، هذه الكلمة السحرية التي لا يفتأ يكررها ، ليجعل منها البرهان القاطع على صحة كل دعوى يريد إقامتها ، وعلى إبطال كل ركن يريد إبطاله . كأن الناس جميعاً ، قد اتتهوا من دراساتهم العلمية للأشياء إلى

أن الجدلية ميزان علمي ضروري لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
فحق لمن شاء أن يجادلهم على أساسه وأن يحاكمهم الى سلطانه ١٠٠

فأنهضني هذا الشعور ، لهذا السبب ، الى كتابة هذا البحث عن القيمة
العلمية الموضوعية للمادية الجدلية ، مستعملاً - والله يعلم ويشهد - الموازين
نفسها التي استعملتها ذات يوم للبحث في القيمة العلمية الموضوعية لليقين
بوجود الله وخالقيته للكون ٠٠ وما يتبع ذلك ٠ فلتن أوصلنا هذا الميزان الى
أن المادية الجدلية حقيقة علمية ثابتة ، فلا مناص لنا عندئذ من أن نستبدل يقيناً
جديداً يقين قديم ٠ أما إن أوصلنا هذا الميزان الى أن المادية الجدلية ، بشكل
كلي أو جزئي ، ليست حقيقة علمية ثابتة ، فلا مناص لنا من التمسك بالحق
أيما كان ٠

وإنك لترى أنني أسميت هذا الكتاب « نقض أوام المادية الجدلية » ٠
فلتعلم أن اضافة الأوهام الى المادية هنا ، إضافة حقيقية على بابها ، وليست اضافة
بيان مجازية ٠ أي ان المطلوب في هذا الكتاب نقض ما قد يكون وهماً من
مقولات المادية الجدلية وقوانينها ، فأما ما هو حقيقة ثابتة وليس بوهم باطل ،
فمن الخيانة بمكان أن نشتغل بالأحاييل التي تستهدف نقضه ، بل يجب دعمه
واليقين به ٠

وهكذا ، فأنا لم أقرر ، بادىء ذي بدىء ، أنني أمام مجموعة أوام ،
وأن علي أن أبادر الى نسفها ٠ بل القرار الذي كتبت هذا البحث على أساسه ،
هو أننا أمام دعوى علمية فلسفية تستهدف وضع تفسير لقصة هذا الكون
بما فيه تاريخ الانسان ، فما هي حقيقة هذه الدعوى ؟

وكما أن علي "ألا" أذهب فريسة الانبهار بهذه الدعوى وضخامتها ، كذلك
ما ينبغي أن تذهب هي فريسة حكم عشوائي جائر منا ، وقرار سريع سابق على
النظر العلمي المجرد ٠

إذن ، علينا أن نشمر عن ساعد الجد ، ونبحث في تجرد وموضوعية
متحررة صافية ٠

وهذا هو القرار الذي قادني الى كتابة هذا البحث ، الذي أضعه بين يدي الإخوة القراء على اختلاف ميولهم ومشاربهم •



ترى من هم الذين ، يعرضون عن مثل هذا القرار ، ويأبون إلاّ اعتناق ما سبق لهم أن اعتنقوه ، وإن كان ذلك قد تم بعيداً عن حكم العقل وسلطانة ؟ إنهم طائفتان من الناس :

الطائفة الأولى ، تتمثل في أولئك الذين دأبوا على التذرع بالقيم والأفكار والمذاهب ، للوصول الى منافعهم وأغراضهم وآمالهم •• وما أكثرها ، وأكثرهم • الطائفة الثانية ، تتمثل في أولئك الشباب الذين يُقادون من مكان الشهوات في نفوسهم ، بعد أن تستثار فيهم تلك الشهوات بأشغال نيرانها المهيجة التي تغشي على صفاء العقل والتدبر الفكري •

فأما الطائفة الأولى ، فليس في شيء من بحوث هذا الكتاب ما يجديهم ، ويدفعهم الى تغيير أفكارهم وواقعهم • فليس حديثي موجهاً اليهم بحال من الأحوال •

وأما الطائفة الثانية : فإنني أدعو أفكارهم فقط الى أن تتحسس الحقائق ثم تدعن لها ، سواء عليهم أأخضعوا سلوكهم لإذعاناتهم الفكرية ، أم لم يخضعوه • إن كلاً منا قد يكون مضطراً ، لأسباب شتى ، الى الاندفاع في سلوك لا يؤمن بسلامته ، فلا يكون هذا الاضطرار ، بطبيعة الحال ، موجباً لتغيير الحقيقة الثابتة في ذهنه •

خيرٌ لهؤلاء الشباب ، أن يحتفظوا بحرياتهم العقلية والفكرية ، على أقل تقدير إن لم يجدوا أنفسهم ، قادرين على التسميق بين أعمالهم وأحكامهم العقلية ، في هذا الوقت •

بعث المفهوم عن هذه الكلمة : « الديالكتيك » بعثاً جديداً ، وبدل قدراً كبيراً من الجهد ، في سبيل تجليته والدفاع عنه . وجمع — في نطاق تحليله والاستدلال عليه كثيراً من منجزات العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية وأفكار ما وراء الطبيعة . وقبل أن ألخص لك المفهوم الفلسفي الذي اتخذ هيجل من « الديالكتيك » أدق تعبير عنه ، يجدر أن أضع بين يديك المحور ، أو اللباب ، الذي تطوف حوله فلسفته هذه . فلعل في ذلك عوناً على تبسيط تصوراته وأفكاره التي لا تخلو من التعقيد :

يتمثل لباب فلسفته كلها في أن وجود الشيء ، أي شيء ، على الصعيد الخارجي ، إنما هو ثمرة الابداع الفكري له . فالفكر يدع الشيء صورةً ومثالا ، ثم يدفعه الى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال . ونقول على وجه التقريب : كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها ، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته ، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من العزف على الآلات المشاهدة كامن في مدوِّنة اللحن : « النوتة » — كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا ، كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالا وتصوراً في ساحة الفكر .

وهو في تعبيره عن الفكر ، لا يقصد فكراً جزئياً ينشل في فكري أو فكري أو أفكار الآخرين . وإنما يقصد الفكر بمعناه الكلي . أي الحقيقة الكلية لمعنى كلمة « الفكر » فتشمل عندئذ التدبير الإلهي ، على نحو تدرج فيه شتى مظاهر الفكر الجزئية المنفرعة عنه . فهو يريد بالفكر الكلي أو ما يعبر عنه بالوجود المطلق ، ما كان يعبر عنه بعض قدامى الفلاسفة بالعقل الأكبر .

إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلّي الموجودات في مرحلتها المثالية الأولى ، ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورةً مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية . وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متألّفة بحيث لا وجود لمعنى التناقض والتناقض فيما بينها . حتى إذا برزت الى ساحة الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها .

ثم إن الفكر لا تنقطع علاقته بها ، عندما تتحول ، منفصلة عنه ، إلى عالم المحسوسات الخارجية . بل يظل الفكر يأخذها ويردّها في منهاج تطوري لانهاية له . . يأخذها إليه مشروعاً للتحسين والتطوير . ويردّها الى الوجود الخارجي تجربة نافذة . ثم لا يلبث أن يأخذها إليه ثانية ليضيف إليها تطوراً جديداً ، يعيدها الى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل . . وهكذا دواليك .

ولا يخفى عليك أن المقصود بالأخذ والردّ هنا ، إنما يتمثل في تسلّط الفكر على الموجودات الخارجية ابتغاء تطورها من حال الى حال .

وهنا يعمد هيغل الى « الديالكتيك » = الجدلية ، ليصور لنا منه السبيل الوحيد الواصل ما بين الفكر والموجودات الخارجية ، بل ما بين الفكر ونوازع الروح والوجدان أيضاً . فعلى هذه السبيل المعبدة وحدها تتواصل حركة الأخذ والردّ من الفكر الداخلي الى الموجودات الخارجية أو إلى عالم الروح والوجدان ، وبالعكس .

هذا هو اللباب المتحصل من فلسفة هيغل .

والآن نحاول أن نلخص البسط الفلسفي لأفكاره التي تطوف حول هذا اللباب في النقاط التالية :

١ - ان بين الفكر والوجود المطلق وحدة حقيقية تتسامى على كل ما قد يبدو من مظاهر التباين بينهما . ذلك لأن الوجود المطلق (وهو الوجود العاري عن قيود الشخصيات الجزئية) لا يتجلّى إلا في الفكر ، فهو بذلك : « مساو لنفسه فحسب ، كما أنه ليس غير مساو لشيء آخر . . إن تعييناً ما أو مضموناً يمدخلان عليه فوارق أو يضمانه مختلفاً عن شيء آخر ، لن يحافظا عليه في نقائه الأصلي » (١) فهو الوجود الكبير الذي تختفي فيه التناقضات لاختفاء حواجز السلب والايجاب منه ، ولاتحاد الموضوع والمحمول فيه ، انه البوتقة العامة التي يتحد فيه كل شيء مع غيره .

(١) هيغل لفرانسوا شاتليه من ص ٧٤ . والنص الذي بين قوسين لهيغل من كتابه علم المنطق ٧١/١ .

وواضح أن حقيقة هذا شأنها لا تعيش إلا في الفكر ، فهو روح هذا النوع من الوجود والباعث لتجليه .

ولما كانت هذه الحقيقة : « الوجود المطلق » هي سرّ ظهور الموجودات المختلفة فيما بعد ، وبعث تجلياتها في ميزان الحس والشعور ، كان لا بد من كون الفكر شريكاً له ، أي للوجود المطلق ، في هذا السر .

إذاً ، فإن كلاً من الفكر والوجود المطلق – وقد قلنا إن بينهما وحدة حقيقية بنظر هيغل – يحققان في الأشياء تجلياتها وظهورها في عالم الوجود الحسي . فبدون الفكر لا يتحقق وجود مطلق ، وبدون الوجود المطلق لا يتحقق الوجود الخارجي . ذلك لأن الوجود الخارجي إنما يتم نسيجه على منوال منطلقة الأول الذي يتم في الفكر .

٢ – ولكن كيف يتم ظهور ، أو صنع ، الحقيقة الموجودة وجوداً خارجياً ، في بوتقة الوجود المطلق ؟ .

يتم ذلك حسب ما تقرره فلسفة هيغل ، من خلال اللحظات الدقيقة والسريعة التي ينتقل فيها الشيء ، بين الوجود المطلق والعدم المطلق . والعدم المطلق – شأنه كشأن مقابله : الوجود المطلق – مستقره في الفكر وحده . إذ هو كما يقول : « خواء .. ولا تعيين » وانعدام مطلق للمضمون .. ان الفرق بينه وبين الوجود المطلق ليس أكثر من الفرق بين : الفكر في شيء ، والفكر في لا شيء » (١) وهذا التنقل الذي نتحدث عنه هو ما يسمى بالصيورة .

وإذاً فإن حقيقة الشيء الموجود إنما تبرز الى ساحة التشخص ، خارجة من عالم الفكر : – الوجود المطلق – عن طريق تلاحق الذرات الصغيرة للمادة أو الشيء ، هاربة من العدم ، لاجئة الى الوجود ، وهو تلاحق مستمر . يقول هيغل :

« الحقيقة ليست لا الوجود ولا العدم . بل هي كون الوجود قد انتقل الى العدم ، والعدم انتقل الى الوجود » (٢) .

(١) من كتاب علم المنطق لهيغل القسم الأول من ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق . وليلاحظ القارئ أنني إنما أحرص على وضع صورة دقيقة وأمينة لتصورات هيغل . ولست بصدد تقويمها لا بتصويب ولا تخطئ .

٣ - يترتب على ما سبق ، أن جميع الوقائع والموجودات الحسية المتناثرة حولنا ، بكل ما قد يكتشفه الانسان فيها من التحليلات والقوانين الطبيعية - ليس في حقيقته أكثر من ظواهر سطحية متناثرة ، وقد تبدو متناقضة ؛ لها من ورائها جذور كلية عامة ، هي في الحقيقة روحها وباعثها والجامع المؤلف بين أشتاتها ؛ وهي كامنة حيث يكمن الوجود المطلق أي في أعماق الفكر .

وإذاً فلا يوجد كبير قيمة لما يجريه العالم في مخبره من أدلة تجريبية ، يصل بها الى تحليل ظواهر الوجود ضمن نطاقها السطحي الذي لا تتعداه .

ان الفيلسوف الذي تمثل مهمته في سبر أغوار الأشياء لربط الظواهر بجذورها ، يجب عليه أن يعلم بأن شهادة الوقائع - كما تفهم عادة - غير موثوق بها ، وأن عالم التجربة مرفوض ، هو وتعاليمه لتوَّهما . ذلك لأن التجربة العلمية على وجه التحديد ليست أكثر من المادة التي تثقت منها الآراء المتناقضة والمصدر الذي تتغذى منه تلك الحوارات الكاذبة ، التي لا ينفك كل واحد يكرر فيها التأكيد على ما يعتقد (١) .

ويقرر هيجل ، مشدداً على هذه النقطة ، « أن الحس العام اذا كانت تمزقه التناقضات ، فذلك لأنه يعكس شتات الظاهرات وغموضها وبلبالها الأساسي . فلا بدّ إذاً من فرض وجود عالم آخر غير هذا العالم - يقصد عالم المحسوسات والموجودات المشخصة - ألا وهو ما وراء العالم . . موضوع القول الكلي ، يتعرف اليه الانسان تجريبياً عندما يتخلص من أهوائه . غير أن ما يجعل وجود ذاك العالم ضرورياً ، هو سعي ومطلب لا تجربة وتطبيق . ففي وراء هذا الواقع الذي يتبدى بسهولة مفرطة ، لا بدّ من وجود واقع ثابت منتظم ، الوصول اليه عسير ، وكثافة وجوده تمنح القول الفلسفي قوامه . وان لم يكن الأمر كذلك ، فلا يبقى سوى الاستسلام للظلم والعنف » (٢) .

(١) هيجل لفرانسوا شاتليه ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

ويرى هيجل أن قرار الفلسفة ومطلبه العظيم، إنما يتمثلان في اختراق حدود هذه التجارب والموجودات الخارجية، التي لا يكاد يصل الباحث فيها — بالطريقة المعتادة — الى شيء غير صور المشاكسات ومظاهر المتناقضات، وما يبدو من سعي بعضها الى تحطيم بعض في طريق من العنف والآلام . فاذا ما تمت العودة بها الى جذورها الأولى، أي الى ساحة الوجود المطلق في الفكر، ظهر عندئذ تألف ما كان مختلفاً واتحاد ما كان متناقضاً، فزالت بذلك الأنانيات وقضي على العنف .

ونظراً الى أن أكثر الناس لم يلتفتوا الى هذه الحقيقة، وحسبوا العلم مشعلاً لا يصلح أن يهديهم إلا الى آخر ما تقف عنده حدود الوقائع والتجارب والمشخصات، فقد جعلوا الوصول الى تلك النقطة قصارى غاياتهم وأعلى مطلب لهم . ولما وصلوا اليها، لم يحاولوا أن يتقدموا خطوة واحدة بعدها . حيث ظنوا أن ذلك هو آخر ما يمكن للعلم الوصول اليه .

فكان من آثار هذا التصور الخاطيء أن اعتقد فريق أن هذه الوقائع والموجودات بما تحتوي عليه من قوانينها الطبيعية هي كل شيء . . . ومن البعث البحث عن أشياء أخرى وراءها، ومن هنا ثار هؤلاء على الدين ومعتقداته ورجاله . . . بينما ذهب فريق آخر الى أن ثمة أسراراً تكمن خلف نثار هذه الوقائع وأحكامها الطبيعية، ولكنهم لم يملكوا، أو لم يبحثوا، عن سبيل منطقي يوصلهم اليها . فتخليلوها وهماً، واعتقدوا بها غيباً وأطلقوا عليها اسم : « ما وراء الطبيعة » فكان من آثار ذلك ما انتهت اليه الفلسفة « الريبية » من شكوك واضطرابات، وما انتهت اليه الفلسفة « الكنتية » من أخيلة وأوهام إلا أنه قد آن للفلسفة أن تضع قرارها موضع التنفيذ، وأن تتدخل لحل هذه المعضلة وانهاء سبيل العنف . . . يقرر هيجل ذلك بأسلوب يتجلى فيه قدر كبير من الاعتدال، والتئويه بالعرق الألماني الذي يخصه بكثير من المزايا التي لا يراها في غيره . . .

وقد تيسر السبيل أمام الفلسفة لقيامها بهذا الدور العظيم في نظر هيغل ،
بعد أن أخرج للناس منطق الفريد الذي أصبح معداً لاستيعاب كل مفاهيم
الفكر وحقائق الكون ومتطلبات الروح ، دونما حاجة الى التخبط في متاهات
المتافيزيقيا وظلام الريية والشكوك :

« إن المنطق الموضوعي يحلّ محلّ الميتافيزيقيا القديمة التي كانت تأليفاً
علياً عن العالم ، قوامه الأفكار وحدها . . والمنطق الموضوعي يشمل أيضاً
الأقسام الأخرى من وراء الطبيعة ، بمقدار ما كانت هذه تحاول بالاستناد الى
صيغ الفكر الخالصة ، إدراك موضوعات خاصة تستمدّها من التصور ، مثل
النفس ، والعالم والله ، وبمقدار ما كان الأساس في طريقة اعتبارها الأشياء يقوم
على تحديدات الفكر ذاته . فالمنطق (يقصد هيغل بالمنطق منطق هو) يدرس
هذه الصيغ والتحديدات ، دون الرجوع الى التصور في موضوعاته وبواقيه ،
ويفحص طبيعة تلك الصيغ والتحديدات وقيمتها ، من أجل ذاتها ، (أي في
واقعها الموضوعي) ، وفي ذاتها (أي ضمن نظام الشعور) . وقد كان علم
ما وراء الطبيعة المتغاضي عن هذا النقص ، يجلب على نفسه هذا اللوم بحق ،
لاستخدامه تلك الصيغ دون نقد ، ودون البحث سلفاً فيما اذا كان يمكنها أن
تكوّن تحديدات للشئ « في ذاته » فقط ، أو تحديدات للعقل فحسب . . » (١) .

إذاً فلسفة هيغل لا تنبذ عالم ما وراء الطبيعة والروح ، ولكنها تفتح سبيلاً
منطقياً اليه ، لقد غدت ساحة ما وراء الطبيعة إذاً داخلة بفضل هذا المنطق ضمن
حدود العلم ، وتلك هي غاية فلسفة هيغل .

٤ - ولكن ما هو أبرز ما يمتاز به هذا المنطق ؟ وما هي الأداة التي
يستعملها منطق هيغل لاقتحام ظلمات النفس وأغوارها ، ولمدّ رواق العلم إلى
ساحة المجهول . . ساحة ما كان يسمى بما وراء الطبيعة ؟ . .

(١) علم المنطق لهيغل ترجمة انطوان برمان وانظر : هيغل لفرانسوا شاتلييه ص ٤٩ .